

١ - أحمد رامي

للأستاذ دريني خشبة

حاولت أن أكتب عن أحمد رامي غير مرة ، فكان الشعر يفاضل قلبي ، وكانت الدنيا كلها تمتلئ بالفناء والموسيقا من حولي ، وكانت ترجمته تجتمع في خيالي نشيداً طويلاً تاماً متنسق الألحان متنوع النغم ، يضرب العقاد في مثاليه من هنا ، والقصبجي في مثاليه من هناك ، وبقية السادة النجيب ، أفراد التخت الموقر الخالد من فوق ومن تحت ، بلوتون ويفتتون ، والصوت الإلهي المقدس يشيع في اللحن فيرف به في القلوب ، ويعلأ به الشاعر ، ويطوف به على العذارى والمحبين والكلاومين ، فيسبب للسكبد الحرشي ، ويأسو الفؤاد المحترق ، ويكفكف الدمع في القلة المؤرقة ، ويرطب اللسان الظامي ، والقلم الفرمان ، بالأغاني الصامتة ، والآهات الخائنة ، فيتمسلي محب ، ويرق حبيب وكنت في كل مرة أستعني بهذا الخيال الجميل الخلو عن

الكتابة ، لأنه خيال ررحي حي تمسخه الكلمات ، وتزيفه تراكب الجمل ، ويصنُّ به على هذا الهراء الذي يسمونه التحليل في عالم النقد ، وأسميه التزييف في دنيا الجمال ...

يهمني كثير من إخواني القراء بأنني أسخو في ثنائي على الشعراء الذين أخفاهم للكتابة عنهم ، وابتسم لي الأستاذ الزيات مرة وأوصاني بالاعتقاد في هذا الثناء ؛ فن عذيري إذا لم أجد مندوحة عن الثناء على رامي ا... رامي الذي أغرم العالم العربي كله بأغانيه ، فأنصت إليها ، وتفنناها ، وهتف بها ، ودأوى بسحرها الآمته ، وأروى بسلسالها أوامه ، وجعلها مشرع حبه ، وترنيمه وجده ، وتمسلة هواه

من منا أيها الإخوان لم يخل إلى نفسه فوجدها تردد أغاني رامي؟ تردها راضية وتردها محزونة ، وتردها مشوقة وتردها هائمة وتردها فرحة مرحة طروباً آمن من أبناء هذا الجيل لم يملأ رامي عشرين عاماً من عمره السعيد المديد بما يمتلئ به قلبه من شعر وغناء ومحبة؟ من منا لم تسجره منظومات رامي التي أودعها أسرار قلبه ، وسقاها مُنهل دمه ، وخلط بها دمه ونجوياته وأمانيه؟

نخوة قومية ، أو نخوة لغوية ، أو نخوة دينية ، ولا تريد من الناس إلا أن يكونوا نقابة أجراء تشتغل بأسعار السوق وأحاديث الخضر واللحوم

ولهذا نحن نكتب عن خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وعمرو بن العاص ، وكل بطل من أبطال التاريخ

وإذا فرغنا من كتبنا التي ندرسها الآن فأحب شيء إلينا أن نبحث عن بطل مضت عليه خمسة آلاف سنة لنخصه بالتقديم والتفضيل ، ونعتقد أن تقديمه وتفضيله أعون على التعريف بنفس الإنسان من أبطال العصر الحاضر ، لأن الناس يستفربون ما مضى من الأجيال ؛ فإذا رفمنا عنهم الغرابة كان هذا أدهى إلى التعريف بحقائق الإنسان

سفنكتب عن هذا وأمثاله ما شئنا نحن أن نكتب فيه ، وشيء واحد لن نكتب عنه طال عليه الزمان أو قصر ، وهو الموضوع الذي يعلبه علينا أعداؤنا الماركسيون مستترين أو مصرحين ، وهم فاهمون ونحن فاهمون

عباس محمد العقاد

إن المعرفة الإنسانية يا أخانا ليس لها زمان

وإن النفس الإنسانية يا أخانا ليس لها زمان ، وليست هي

من « مودل » سنة ١٩٤٤ دون ما تقدمها من السنين

فإذا كشف الكاتب حقائق المعرفة الإنسانية أو حقائق النفس الإنسانية في سيرة خالد بن الوليد ؛ فهو قد كشف الحقيقة التي تبقى ألف سنة وألني ستة بعد اليوم ، بل تبقى ما بقي الإنسان ونفس الإنسان ، يوم تكون مساحة الأرض الزراعية وعدد الآلات الصناعية في سنة ١٩٤٤ عدماً فانياً ، كأنه لم يخلقه الله قط في عالم الوجود

يصح أن يذكر الكاتب الظريف هذا كله ، ويصح أن يذكر معه أن إحياء الروح العربي والقومية العربية في عصرنا هذا موضوع لا يجيء اليوم في غير موعد ولا على غير أوان

إنجلترا والولايات المتحدة تتحدث بالجامعة السكسونية ،

وهي القوية الفنية عن الجامعات

والروح العربي لازم جداً في هذا العصر ، لأن المذاهب

الهداية التي تهدد مستقبل الأدمية كلها تأتي أن نكون الأمم

وذلك متوسط ، وذلك غامض ، وتلك الفقرة لا معنى لها ، وهذا الشطر لا خير فيه ، حتى إذا كنت قد كوت لنفسك رأياً في الشاعر قبل أن تقرأ هراء الناقد . وحتى إذا كنت قد أغرمت بشعره ، ورضيت عن طرائقه وموضوعاته ، تسلمك انسانة المحترم بأرائه فلا يدعك حتى تغنى نفسك وبتقزز خيالك ، وتمسخ الصورة الجميلة الرائعة الحبيبة فتصبح هولة أو سملة ... أما الخططة التي يغازل الشعر فيها شبة القلم ، فلا تتأق إلا إذا كانت نمة صلة روحية بين الشاعر والناقد . ولقد أراد المرحوم الأستاذ صادق عنبر أن يكتب كلاماً ما يجعله مقدمة لديوان رامي ، فلم يستطع أن يقول شيئاً . ولكنه كتب سطوراً جميلة ، يحمل كل منها بيتاً منشوراً من الشعر ، لا يوصله بالبيت السابق ولا يربطه بالبيت اللاحق سبب من الأسباب ... وإليك نموذجاً من أوائل هذه الأبيات :

عرفته فتياً يخف للشعر ويجمع له ... الخ
وعرفته وقد لبس الشباب ، وإذا شمائل صرحة الخنايل ...
ثم عرفته شاعراً غزلاً يشبه أن يكون كالبهاء . في الضحك
والبسكاء ...

وإنك لتراه ، فتقرأ شعره فيه ... وتقرأ له فتراه في شعره ،
أقدرق ضراج شعره ، وعذب على النفس اطراده ...
وبندر أن تلقاه إلا بالكيا أو ضاحكاً ... فإذا بكى ...
وإذا ضحك ... وهكذا إلى آخر الصفحات الثلاث التي قدم بها
للجزء الأول من ديوان رامي الذي يشمل شعر صباه بين
سنتي ١٩١٦ ، ١٩١٧

وأنا والله أعذر المغفور له الأستاذ عنبر وأطلب له من الله الرحمة ،
فرامي من الشعراء الذين تصعب الكتابة الموضوعية عنهم ، وقد غازل
الشعر قلم عنبر كما يحاول أن يغازل قلبي الآن ، وكما غازل
قريحة شوق — رحمه الله — حينما قدم للجزء الثاني من ديوان
رامي بأبيات ثمانية يقول في أولها :

ديوان رامي تحت حاشية العسا عذب عليه من الرواة زحام
بالأمس بل صدق النهي وسخيه واليوم للتالي الولي سجام
شعر جرى فيه الشباب كأنه جنبات روض طلهن غمام
في كل بيت مجلس ومدامة وبكل باب وقفة وغرام
والبيت السابع

أما زهير فقد سما (هرم) به واتسمون بشرك الأهرام ...

إن رامي العظيم الخالد ، هو ذلك النبع الأول الصافي
ذو الحرير ، الذي تفتأ الحائم الورق نحوّم من فوقه وتهوى
إليه ، لتحصو من صفحته الحسوة والحسوتين تبل ظمأ وتشقى
جواداً ، ثم تسكن إلى الأذنان لتلاّ الدنيا هديلاً ، وتبشر المحبين
رسالة رامي ... رامي الذي يقول منذ ربع قرن :

تغلغل الحب في نؤادي تغلغل الماء في الفسحون
وأرسل الحسن في قريضي من نوره الواضح المبين
جاء أحلي من الأمان بسمن اللبائس الغيب
وجاء أشجني من الأغاني ندين بالوجد والحين
يا ريشة الوم صووري لي في صفحة الخاطر الحزين
ما جف من يانع جتي غاض من سلسل ممين
وبا طيور الخيال خفي في دولة الليل والكون
وابسكي فضاء صدري ورجسي من صدق أنيني
ورفر في علي فأت تقضي ترفض من ذكره شثوني
ويخيل لي ، وأنا أردد هذا الشعر الجليل من شعر رامي الذي

حفظته منذ ذلك العهد ، أن أحداً من الناس لا يستطيع أن
يكتب عن رامي دون أن يغازل الشعر قلعه كما يغازل قلبي الآن .
وللكتاب عن الشعراء الممتازين أو الأدباء الممتازين خطط متنوعة
سهلة كاهها ، يسير على المؤرخ أو الناقد ... ولعل أصعب هذه
الخطط وأشدّها عسراً على الناقد أو المؤرخ ، هي تلك التي
يغازل الشعر فيها قلعه ، فلا يدعه يقول ما يريد ، ولا يتركه
يسير في تلك السبل السهلة المعبدة التي سار فيها الكتاب قبله .
فيمبدأ بكلمة عن نشأة الشاعر والبيئة التي أرضعت بلبانها خياله
وغذت بمارها وجدانه ، وسلطت ظباءها وألوانها وأضواءها على
قلبه تنوشه وتطبع على شفاقه الأحمر والأصفر والوردي
والبنفسجي ، وتضوي سويداءه استعداداً لتلقى رحي السماء ...
ثم يتناول بمد ذلك الظروف التي هيأت للشاعر قول الشعر ،
ومما يتردد في تلك الظروف من غزل ونظر ودعابة ، تنقلب آخر
الأمر إلى قلب يرتجف ولسان يتلجلج ، ودمع يترقرق وعين
مؤرقة ، وكبد محترقة وخيال كامل شامل يتسع للأرض
والسموات ، زيد تتناول القلم ، هذا المخلوق العجيب ، فتسجل
الآيات البينات ، ترسلها كلاماً موسيقياً موزوناً حافظاً بالمعاني
الفريدة ، ثم يفرغ — أي الكتاب أو المؤرخ — إلى شعر هذا
الشاعر ينقده ويزنه ، ويظل يقول لك هذا جيد وهذا ردي ،